Al-Farouk journal of sciences
Volume (2), Issue (1) (March, 2026)
ISSN: 3135-2359

مجلة الفاروق للعلوم
المجلد (2) العدد 1 مارس 2026
ردمد: 3135-2359

معتقلات الإبادة الإيطالية في ليبيا (1929–1934م): دراسة في الآثار الاجتماعية

نجمي ميلود أبوبكر الفنطازي
قسم التاريخ – كلية التربية زوارة – جامعة الزاوية
n.alfantazi@zu.edu.ly

Italian Extermination Camps in Libya (1929-1934): A Study of the Social Impacts

Najmi Miloud Abubakr Al-Fantazi
Department of History – Faculty of Education, Zuwarah – University of Zawiya

تاريخ الاستلام: 2026/01/10 تاريخ المراجعة 18 / 2 / 2026 تاريخ القبول: 2026/03/11- تاريخ النشر: 2026 /03/22

الملخص

يهدف البحث إلى سد الفجوة المعرفية في التأريخ الليبي عبر الانتقال من السرد العسكري التقليدي للمعتقلات الإيطالية (1929–1934م) إلى تحليل أبعادها السوسيولوجية. ويركز على رصد آليات التفكيك الممنهج للوحدات القبلية، وتحليل أثر الانهيار الرعوي في خلق فقر هيكلي، فضلا عن استكشاف دور وحدة الألم خلف الأسلاك في صهر الانتماءات الضيقة وصياغة هوية وطنية جامعة، مع تبيان التحولات القيمية والأدوار الجديدة التي فرضتها المحنة، خاصة دور المرأة كحارس للذاكرة والقيم.

واستخدم البحث منهجا تكامليا يجمع بين المنهج التاريخي لتتبع سياق التهجير القسري والسياسات الاستعمارية، والمنهج الوصفي التحليلي لتشريح الظواهر الاجتماعية المعقدة داخل مجتمع المعتقل. واعتمدت الدراسة على أدوات نوعية شملت تحليل محتوى الوثائق الرسمية والمذكرات، واستنطاق الروايات الشفوية المؤرشفة، مع اتخاذ الشعر الشعبي (الغناوي والشتاوي) كوثيقة سوسيولوجية تعكس الوجدان الجمعي والذاكرة الانفعالية للمرض والجوع والفقد.

وتوصل البحث إلى أن المعتقلات كانت مختبرات لإبادة اجتماعية أحدثت شرخا ديموغرافيا هائلا، وحولت المجتمع من اقتصاد رعوي مستقل إلى حالة تبعية مهينة. كما أثبتت النتائج أن تحطم الهياكل القبلية التقليدية قابله ميلاد هوية وطنية موحدة تشكلت داخل بوتقة المعاناة المشتركة.

وأوصى البحث بضرورة تدويل ملف المعتقلات كجريمة إبادة جماعية مكتملة الأركان، وإدماج تاريخ الضحايا والسوسيولوجيا الشعبية في المناهج التعليمية. كما حث على تدشين مشروع وطني للأرشفة الرقمية لمواقع المعتقلات، وإجراء دراسات بينية تربط صدمة المعتقل بالسلوك الاجتماعي والسياسي المعاصر لليبيين.

الكلمات الافتتاحية معتقلات، الإبادة الإيطالية، ليبيا.

Abstract

This research aims to bridge the knowledge gap in Libyan historiography by shifting from the traditional military narrative of Italian concentration camps (1929-1934) to an analysis of their sociological dimensions. It focuses on monitoring the systematic deconstruction of tribal units and analyzing the impact of pastoral collapse in creating structural poverty. Furthermore, it explores the role of unity of pain behind barbed wire in merging narrow affiliations and forging a unified national identity, while highlighting the value shifts and new roles imposed by the ordeal, particularly the role of women as guardians of memory and values.

The research used an integrative methodology that combines the historical method to trace the context of forced displacement and colonial policies, and the descriptive-analytical method to dissect the complex social phenomena within the camp society. The study relied on qualitative tools, including content analysis of official documents and memoirs, and the interrogation of archived oral histories, while utilizing folk poetry (Ghanawi and Shatawi) as a sociological document reflecting the collective conscience and emotional memory of disease, hunger, and loss.

The research found that the camps were laboratories for social genocide that caused a massive demographic rift and transformed Libyan society from an independent pastoral economy into a state of humiliating dependency. The results also proved that the shattering of traditional tribal structures was met with the birth of a unified national identity formed within the crucible of shared suffering.

The research recommended the necessity of internationalizing the issue of the concentration camps as a full-fledged crime of genocide and integrating the history of victims and folk sociology into educational curricula. It also urged the launching of a national project for the digital archiving of camp sites and conducting interdisciplinary studies linking the trauma of the camps to the contemporary social and political behavior of Libyans.

مقدمة

شهدت العقود الأولى من القرن العشرين تحولات دراماتيكية في إستراتيجيات القوى الاستعمارية الكبرى، حيث انتقلت من مفهوم الاحتلال العسكري التقليدي إلى مفهوم الاستعمار الاستيطاني الذي يستهدف إحلال مجتمع مكان آخر عبر آليات التغيير الديموغرافي القسري .وفي هذا السياق، تبرز التجربة الليبية تحت الحكم الفاشي الإيطالي كنموذج صارخ لسياسات الهندسة الاجتماعية التي لم تكتفِ بمواجهة السلاح بالسلاح، بل سعت إلى تجفيف منابع المقاومة عبر تدمير الحاضنة الشعبية والاجتماعية التي كانت تمثل العمود الفقري لحركة الجهاد (الكبتي، 2005، ص 142).

لقد مثلت مرحلة الثلاثينيات من القرن العشرين، وتحديدا حقبة غراتسياني، ذروة الصراع الوجودي في تاريخ شمال أفريقيا المعاصر .فلم يكن قرار تهجير سكان الجبل الأخضر ونقلهم قسريا إلى معتقلات صحراوية نائية في المنطقة الوسطى مجرد تدبير أمني لمطاردة الدور، بل كان إستراتيجية ممنهجة استهدفت اقتلاع الإنسان الليبي من بيئته الحيوية وقطع صلاته الرمزية والمادية بالأرض .هذا الاقتلاع القسري أدى إلى حالة من الارتباك الاجتماعي الشامل، حيث واجه المجتمع الليبي داخل أسلاك العقيلة والمقرون وسلوق والبريقة أشكالا من الإبادة الصامتة التي لم تستهدف الجسد فحسب، بل استهدفت البنية القيمية العميقة والمنظومة الاقتصادية الرعوية التي استقر عليها المجتمع القبلي لقرون طويلة (التائب، 2001، ص 88).

إن المعتقل في التجربة الليبية لم يكن مجرد سجن جماعي، بل كان مختبرا قسريا لإعادة صياغة الهوية الوطنية .ففي الوقت الذي عملت فيه السلطات الاستعمارية على تفتيت البنية القبلية وتحطيم هيبة القيادات التقليدية عبر سياسات التذريب الاجتماعي، نشأت داخل تلك الأسلاك روابط جديدة تجاوزت الحدود القبلية الضيقة لتنصهر في بوتقة المعاناة المشتركة . لقد تعرضت الأسرة الليبية، بوصفها الخلية الأولى للمجتمع، لهزات عنيفة نتيجة فقدان الخصوصية، وتحول الرجل من منتج مستقل في اقتصاد رعوي إلى قوة عمل مسخرة تفتقد أدنى مقومات الكرامة الإنسانية، وهو ما أحدث تحولات طبقية ونفسية عميقة امتدت آثارها لعقود (إيفانز بريتشارد، 1949، ص 215).

تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على هذه الآثار الاجتماعية غير المنظورة للمعتقلات، متجاوزة السرد التاريخي للأحداث العسكرية نحو تشريح سوسيولوجي دقيق .وتسعى إلى تتبع مسارات التحول في الشخصية الليبية تحت وطأة مثلث الموت (الجوع، والفقر، والوباء)، وكيف أعيد تشكيل الروابط الأسرية والقبلية في ظل ظروف استثنائية استهدفت تشييء الإنسان

وحرمانه من فاعليته الاجتماعية .إن فهم هذه المرحلة يعد مدخلا أساسيا لفهم تركيبة المجتمع الليبي المعاصر وكيفية تشكل وعيه الجمعي حيال مفاهيم الحرية، والأرض، والهوية الوطنية.

مشكلة البحث

تتمحور مشكلة البحث حول وجود فجوة معرفية في التأريخ الليبي، حيث ركزت السرديات التقليدية على المعتقلات الإيطالية كخاتمة عسكرية لعملية تهدئة برقة ونهاية لحركة الجهاد المسلح، بينما ظل الجانب السوسيولوجي (الاجتماعي) مغيبا في ثنايا الأحداث. وتبرز الإشكالية في طبيعة التحولات البنيوية التي طرأت على الإنسان الليبي والنسيج الاجتماعي نتيجة سياسات الإبادة الصامتة (الجوع، الأوبئة، والسخرة). وبناء عليه، تسعى هذه الدراسة لسبر أغوار تلك التجربة عبر الإجابة على التساؤل الرئيس التالي:

- ما الآثار العميقة التي خلفتها معتقلات الإبادة الإيطالية على البنية المجتمعية الليبية خلال الفترة (1929–1934م) وما هي تداعياتها الممتدة؟

ويتفرع من التساؤل الرئيس الأسئلة الاتية:

1. كيف ساهمت عملية التهجير القسري واختلاف البيئة الجغرافية في صدمة التفكك الاجتماعي الأول لليبيين؟
2. ما دور سياسات التجويع والأوبئة في تغيير التركيبة الديموغرافية (السكانية) للأسر الليبية داخل المعتقلات؟
3. كيف تراجع الدور الحمايوي للقبيلة أمام البطش الاستعماري، وما هي الأدوار الجديدة التي فرضتها المحنة على المرأة؟
4. ما الآثار الاجتماعية والنفسية التي واجهها الناجون بعد خروجهم من المعتقلات ومحاولتهم الاندماج في مجتمعهم مجددا

أهداف البحث

1. رصد وتحليل آليات التفكيك التي مارسها الاحتلال الإيطالي ضد الوحدات القبلية والاجتماعية.
2. الكشف عن حجم الانهيار الاقتصادي (الرعوي) وأثره في تحويل المجتمع الليبي إلى مجتمع معدم.
3. تبيان التحولات القيمية والسلوكية التي فرضتها حياة المعتقل على الفرد والأسرة.
4. استشراف دور المعتقلات كـ بوصلة ساهمت في صهر الانتماءات الضيقة وصياغة هوية وطنية جامعة.

أهمية الدراسة

تتجلى **أهمية البحث** في كونه يمثل تحولا نوعيا في مسار البحث التاريخي والاجتماعي الليبي، حيث تكمن قيمته العلمية في تقديم قراءة سوسيولوجية معاصرة تتجاوز السرد الكلاسيكي المعتاد الذي يركز على الوقائع العسكرية والمعارك الحربية، ليغوص بدلا من ذلك في عمق التجربة الإنسانية وتحليل التحولات البنيوية التي طرأت على المجتمع الليبي تحت وطأة الأسر، مما يفتح آفاقا معرفية جديدة لفهم كيفية تشكل الوعي الجمعي في ظروف القهر الاستثنائي.

وتتكامل هذه القيمة المعرفية مع أهمية وطنية بالغة الحساسية، تتمثل في صون وتوثيق الذاكرة الاجتماعية الليبية وحماية إرث الضحايا من الاندثار أو التهميش التاريخي، وذلك من خلال رصد الانتهاكات الإيطالية وتصنيفها كجرائم إبادة اجتماعية متكاملة الأركان، مما يساهم في بناء سردية وطنية متماسكة تستند إلى الحقائق الميدانية والشهادات الشفوية، وتعزز من مكانة التاريخ الاجتماعي كركيزة أساسية لتعريف الهوية الوطنية الليبية أمام الأجيال القادمة.

حدود الدراسة

الحدود الموضوعية :الآثار الاجتماعية (تفكك القبيلة، الأسرة، الوضع الاقتصادي، الذاكرة).

الحدود المكانية :المعتقلات الإيطالية في ليبيا (العقيلة، المقرون، سلوق، البريقة، وغيرها).

الحدود الزمنية :من عام 1929م (بداية التصعيد والتهجير) إلى 1934م (إغلاق معظم المعتقلات وإعلان تهدئة برقة).

منهجية الدراسة وأدواتها

تعتمد منهجية البحث وأدواته في مقاربتها لظاهرة المعتقلات الإيطالية في ليبيا على تكامل منهجي يجمع بين الرصد التوثيقي والتحليل السوسيولوجي، وذلك من خلال استخدام المنهج التاريخي كإطار مرجعي لتتبع سياق الأحداث وتسلسل عمليات التهجير القسري، مما يتيح فهم الجذور الزمانية والمكانية للمأساة وتطور السياسات الاستعمارية من المواجهة العسكرية إلى الإبادة الجماعية.

ويتقاطع هذا مع استخدام المنهج الوصفي التحليلي الذي لا يكتفي برصد الوقائع، بل يغوص في وصف الظواهر الاجتماعية المعقدة داخل مجتمع المعتقل، وتحليل شبكة العلاقات المتغيرة، وتفسير النتائج المترتبة على تدمير البنى التقليدية وأثر ذلك على السلوك البشري تحت الضغط.

كما تم الاعتماد في هذا البحث على تحليل المحتوى للوثائق الرسمية والمذكرات والرسائل التي خلفتها الإدارة الاستعمارية والناجون على حد سواء، مع إعطاء محورية خاصة للروايات الشفوية المؤرشفة التي تمثل صوت من لا صوت لهم. كما استخدم الشعر الشعبي (لاسيما الغناوي والشتاوي) كأداة سوسيولوجية نوعية لتحليل الوعي الاجتماعي وتوثيق الذاكرة الانفعالية للمرض والجوع والفقد، باعتباره المصدر الأكثر صدقا في تعبيره عن الهوية الثقافية الليبية ومقاومتها للاختراق داخل الأسلاك الشائكة.

الدراسات السابقة

1– **إيفانز بريتشارد (1949) سنوسية برقة: دراسة في التنظيم الاجتماعي والسياسي**

هدفت إلى فهم طبيعة البناء الاجتماعي للقبائل في شرق ليبيا وعلاقتها العضوية بالحركة السنوسية كإطار ديني وسياسي موحد، واستخدم الباحث المنهج الأنثروبولوجي الميداني القائم على الملاحظة والمشاركة أثناء تواجده في المنطقة، وتوصلت الدراسة إلى أن النظام القبلي كان هو الضامن الأساسي لاستمرار المقاومة من خلال شبكة الزوايا والروابط الاقتصادية الرعوية التي وفرت الإمداد للدور، وأثبتت أن سياسات التهجير الإيطالية استهدفت كسر هذا الرابط البنيوي، وأوصت الدراسة بضرورة إدراك خصوصية التركيبة الاجتماعية الليبية عند دراسة تاريخها السياسي، معتبرة أن القبيلة في ليبيا ليست مجرد وحدة إدارية بل هي نظام دفاعي متكامل يصعب اختراقه أو تدميره دون إحداث فوضى اجتماعية شاملة وتفكك في الهوية المحلية.

2– **محمود علي التائب (2001) ليبيا بين الماضي والحاضر: صفحات من النضال الوطني**

هدفت إلى تتبع مسارات النضال الوطني الليبي ضد الاستعمار الإيطالي مع التركيز على المآسي الإنسانية والاجتماعية التي رافقت هذه المسيرة، واستخدمت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي لاستعراض الأحداث وربطها بسياقاتها السياسية والاجتماعية، وتوصلت النتائج إلى أن المعتقلات الإيطالية كانت أداة لتدمير رأس المال الاجتماعي لليبيين عبر مصادرة الثروة الحيوانية ونشر الأوبئة المجتمعية التي خلفت آلاف اليتامى والأرامل، مما أدى إلى ظهور طبقة من المعدمين والفقراء، وأوصت الدراسة بأهمية توثيق الممارسات الاستعمارية لضمان حقوق الأجيال القادمة في معرفة حجم التضحيات، وضرورة الاهتمام بالآثار النفسية والاجتماعية بعيدة المدى التي تركتها تلك الحقبة السوداء على بنية الشخصية الليبية المعاصرة في المناطق المتضررة.

3– **سالم الكبتي (2005) ليبيا مسيرة الاستقلال: دراسة وثائقية في تاريخ ليبيا المعاصر**

هدفت إلى توثيق المراحل التاريخية المؤدية إلى استقلال ليبيا مع تحليل الظروف الاجتماعية والسياسية التي صاغت الهوية الوطنية، واستخدم الباحث المنهج التاريخي الوثائقي المعتمد على الأرشيفات الوطنية والدولية والمذكرات الشخصية، وتوصلت الدراسة إلى أن تجربة المعتقلات رغم قسوتها، عملت كبوتقة صهرت الانتماءات القبلية الضيقة وحولتها إلى وعي

وطني جامع كان هو الوقود الحقيقي لمطالب الاستقلال لاحقا، كما كشفت عن دور المرأة المحوري في حماية النسيج الأسري من الانهيار الكامل خلف الأسلاك، وأوصت الدراسة بضرورة إعادة قراءة تاريخ المقاومة الليبية ليس كوقائع عسكرية فحسب، بل كعملية تحول اجتماعي كبرى أدت إلى نشوء الدولة الوطنية الحديثة، مع التركيز على تدريس هذه المرحلة في المناهج التعليمية لتعزيز الانتماء.

4- مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (1990) سلسلة روايات المجاهدين: شهادات شفوية عن حركة الجهاد والمعتقلات الإيطالية في ليبيا

هدفت إلى حفظ الذاكرة الوطنية من الضياع عبر تدوين شهادات الناجين والمشاركين في حركات الجهاد والمعتقلات، واستخدمت الدراسة منهج التاريخ الشفوي كأداة لاسترداد المسكوت عنه في التأريخ الرسمي، وتوصلت النتائج إلى تفاصيل مروعة حول الإبادة الصامتة والحياة اليومية داخل المعتقلات من حيث انعدام الخصوصية، وتفشي الأمراض كالتيفوس، ونظام السخرة المهين الذي استنزف طاقة الشباب، وأوصت الدراسة بضرورة استكمال جمع الروايات الشفوية من كبار السن قبل رحيلهم، وتحليل هذه الروايات سوسيولوجيا لفهم آليات الصمود الاجتماعي الليبي، واعتبار هذه الشهادات وثائق قانونية وتاريخية دامغة لا تقل أهمية عن الوثائق المكتوبة في إثبات الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها الفاشية.

5- علي عبد اللطيف أحميدة (2022) الإبادة الجماعية في ليبيا: أدب وتاريخ الاستعمار المنسي

هدفت إلى إعادة توصيف ممارسة المعتقلات الإيطالية كجريمة إبادة جماعية ممنهجة (Genocide) وليس مجرد إجراء حربي، واستخدم الباحث منهجا نقديا يدمج بين التاريخ، والأدب الشعبي، والنظرية الاجتماعية مابعد الاستعمارية، وتوصلت الدراسة إلى أن الاستعمار تعمد محو الوجود عبر تدمير الاقتصاد الرعوي وتفتيت الأسرة، وأن الشعر الشعبي كان الوسيلة الأقوى التي حفظت الذاكرة الجماعية الليبية من المحو التاريخي الاستعماري، وأوصت الدراسة بضرورة كسر حاجز النسيان الدولي لهذه المحرقة، وتفعيل المسارات الأكاديمية والقانونية للمطالبة بالاعتذار والتعويض، مع التأكيد على أهمية نزع الاستعمار عن المعرفة التاريخية الليبية عبر تقديم قراءات وطنية نابعة من الداخل تستند إلى الموروث الثقافي والشفهي للمجتمع.

من خلال استعراض الدراسات السابقة، يتضح أنها شكلت رصيدا معرفيا ثريا تنوع بين التحليل الأنثروبولوجي الكلاسيكي الذي أرسى دعائمه إيفانز بريتشارد، والتوثيق التاريخي والشفوي الذي اضطلعت به المؤسسات الوطنية كمركز جهاد الليبيين، وصولا إلى القراءات النقدية الحديثة لمفهوم الإبادة عند علي أحميدة، إلا أن معظم تلك الأدبيات ركزت بشكل مكثف على السرديات السياسية والعسكرية أو التوثيق الكمي لضحايا المعتقلات. وما يميز الدراسة الحالية هو تجاوزها لتلك الأطر التقليدية من خلال تبني رؤية سوسيولوجية غائرة تبحث في الآثار الاجتماعية غير المنظورة، حيث تركز بشكل دقيق على التغيير البنيوي في الشخصية الليبية وتفكيك المنظومة القيمية (كالستر والخصوصية) تحت وطأة التكدس البشري، كما تنفرد الدراسة بتحليل التحول من نمط الإنتاج الرعوي المستقل إلى التبعية الاقتصادية والهيكلية التي أعادت تشكيل الطبقات الاجتماعية الليبية لاحقا. وبذلك، تسعى هذه الدراسة لتقديم قراءة مجهرية لآليات الصمود النفسي والاجتماعي، مبرزة دور المعتقل كعامل حاسم في صياغة الهوية الوطنية وتآكل التراتبية القبلية التقليدية لصالح انتماء وطني أوسع، مما يجعلها إضافة نوعية تسد فجوة التحليل الاجتماعي في أدبيات التاريخ الليبي المعاصر.

المبحث الأول: التهجير القسري واقتلاع الجذور الاجتماعية

تمهيد

تعد عملية التهجير القسري التي نفذتها السلطات الاستعمارية الإيطالية في ليبيا بين عامي (1930–1931م) واحدة من أعنف عمليات الهندسة الديموغرافية في التاريخ الحديث، حيث لم تهدف فقط إلى عزل المقاومة، بل إلى تدمير الكيانية الاجتماعية للإنسان الليبي.

أولا: تفكيك المجتمعات المحلية

تمثل عملية التهجير القسري التي بدأت في صيف عام 1930م الذروة الإستراتيجية لسياسة التطهير العرقي والاجتماعي التي انتهجها الفاشي رودولفو غراتسياني، إذ لم يكن الهدف العسكري المعلن (عزل المجاهدين عن السكان) إلا غطاء لعملية أعمق استهدفت اقتلاع الجذور الاجتماعية لشعب الجبل الأخضر. إن قرار غراتسياني بتفريغ الجبل استهدف ضرب الذاكرة المكانية عبر إجبار القبائل على ترك مراكزها الأنثروبولوجية من آبار وزوايا سنوسية ومقابر أجداد، مما فصم العروة التي تربط الفرد بأرضه وأدى إلى حالة من الاغتراب الوجودي)نجم، 2001، ص 184 .(فالقوة الحقيقية للمقاومة تكمن في البيئة الحاضنة، وكان التهجير وسيلة لتحويل البدوي من سيد في مجاله إلى مقتلع في بيئة غريبة، تحطيما لكبرياء المنظومة القبلية التي كانت ترى في الأرض عرضا لا ينتهك (شكري، 1948، ص 412)

ولم يقتصر الأمر على التهجير المكاني، بل امتد ليشمل سياسة التذرير الاجتماعي من خلال الخلط المتعمد للبطون وكسر اللحمة القبلية، حيث تعمدت السلطات الإيطالية أثناء تنظيم القوافل خلط بطون القبائل المختلفة ومنع تجمع النجوع المترابطة قرابيا (الكبتي، 2005، ص 220) هذا الإجراء أحدث ارتباكا هائلا في تراتبية القيادة التقليدية وأدى إلى تآكل العقد الاجتماعي القبلي، وبدلا من تحرك المجتمع ككتلة عضوية متماسكة، تحول بفعل الضغط العسكري إلى عائلات نووية معزولة تصارع من أجل البقاء، وهو ما يمثل تدميرا للبنية التحتية للمجتمع القبلي لإحلال نظام سلطوي استعماري مكانه (البربار، 1995، ص 92)

توازى هذا التفكيك الاجتماعي مع تدمير ممنهج لرأس المال الاجتماعي (الماشية)، ففي المجتمع الرعوي لا تمثل الماشية ثروة مالية فحسب، بل هي محدد للمكانة والقدرة على التحالفات. وقد شهدت رحلة التهجير نفوق ومصادرة الجزء الأكبر من الثروة الحيوانية، مما جرد القبائل من وسيلتها الوحيدة للصمود (الزاوي، 1970، ص 255) هذا الفقدان أحدث تحولا طبقيا قسريا، فمشهد إبادة الماشية كان يمثل نهاية العالم للبدوي، مما حول المجتمع إلى كتلة معدمة ومعالة، وأصبح الهم الأول للفرد هو البحث عن حفنة شعير بدلا من التفكير في الجهاد، في خطوة مقصودة لإخضاع العقل الجماعي (التائب، 2001، ص 110)

لم يكن الطريق إلى معتقلات العقيلة وسلوق مجرد مسار جغرافي، بل كان ممر إبادة جسد صدمة المسير والموت العابر، إذ كان كبار السن والأطفال الذين عجزوا عن مواكبة القوافل يتركون للموت أو يقتلون رميا بالرصاص (روايات المجاهدين، 1990، ص 130) إن هذا العنف البصري الممنهج ساهم في كي الوعي الليبي وتفكيك شعور الأمان الأسري، حيث فقدت الأسرة قدرتها الحمائية أمام قوة البطش، مما أورث الأجيال صدمة تاريخية تمثلت في حالة من الذهول الاجتماعي الذي خيم على الناجين حتى قبل دخولهم وراء الأسلاك الشائكة.

ثانيا: صدمة المكان الغريب

لم يكن الانتقال من الجبل الأخضر إلى مناطق المعتقلات مجرد تغيير في الإحداثيات الجغرافية، بل كان نفيا بيئيا استهدف تحطيم التوازن البيولوجي والنفسي للإنسان الليبي، فالمسافة الفاصلة بين مناخ الجبل المتوسطي ومناخ السبخات الصحراوية القاحلة مثلت فجوة أدت إلى ما يعرف بالصدمة البيئية. واجه الجسد الليبي البدوي، الذي اعتاد لقرون على بيئة الجبل المعتدلة، صدمة فسيولوجية حادة عند نقله قسريا إلى مناطق العقيلة والبريقة، حيث وجد المهجرون أنفسهم أمام رياح القبلي الساخنة ورطوبة السبخات، مما جعل الأجساد بيئة خصبة للأوبئة في ظل انعدام وسائل الوقاية من تقلبات الطقس

الصحراوي المتطرف (الأشهب، 1952، ص 162) وزاد من حدة الفتك البيئي استبدال مياه العيون الجبلية العذبة بمياه الآبار المالحة، مما أدى لانتشار أمراض الفشل الكلوي والزحار (الدوسنتاريا)، ورفع معدلات الوفيات بشكل مذهل بين الأطفال والشيوخ نتيجة الغربة المائية التي واجهتها أجسادهم (الزاوي، 1970، ص 260)

تحول الإنسان الليبي نتيجة هذا النفي من سيد الأفق في نجعه المفتوح إلى سجين في مساحة ضيقة لا تتعدى المترين، حيث حشرت الإدارة الإيطالية آلاف الأسر في مساحات ضيقة جدا، مما ألغى مفهوم الستر والخصوصية التي تعد ركيزة أساسية في قيم المجتمع (التائب، 2001، ص 88) وأحدث هذا الحصار داخل الأسلاك الشائكة حالة من الفراغ الوجودي أدت إلى سحق الشخصية البدوية، فالفرد فقد شعوره بذاته وكرامته نتيجة فقدانه لمحيطه الطبيعي وحريته في الحركة التي كانت تمثل جوهر حياته قبل الاعتقال (الكيخيا، 1994، ص 45)

تغيرت كذلك دلالة الخيمة في الثقافة الليبية من رمز للعز والسيادة إلى زنزانة بائسة تستر الموت، إذ تحولت الأرض تحت الخيام إلى سبخات ملحية رطبة تنبعث منها الروائح الكريهة، مما جعل النوم عليها نوعا من التعذيب الجسدي المستمر (روايات المجاهدين، 1990، ص 112) إن رؤية الأرض القاحلة يوميا رسخت في أذهان المعتقلين فكرة النهاية، وتحول المجتمع من منتج مرتبط بدورة الزراعة والرعي إلى مجتمع سلبي ينتظر المجهول خلف الأسلاك، مما كسر الرابطة الروحية بين المعتقل ومفهوم الوطن المنتج (الكبتي، 2005، ص 328)

ولم يكن توزيع الخيام عشوائيا، بل خضع لهندسة مراقبة دقيقة، حيث صممت المعتقلات على شكل صفوف عسكرية مكشوفة لأبراج المراقبة والمدافع الرشاشة، استهدافا لكسر النمط الدائري التقليدي لـ النجع الذي كان يوفر الحماية الاجتماعية المتبادلة. هذا التغيير المكاني استبدل التضامن العفوي بنظام مراقبة صارم يشعر فيه المعتقل بأنه مكشوف تماما أمام عين المحتل في كل لحظة، مما أحكم السيطرة المكانية والنفسية على الناجين (عميش، 2010، ص 115)

ثالثا: معايير التصنيف الاجتماعي داخل المعتقل

لم تكن المعتقلات الإيطالية مجرد ساحات للاحتجاز الجماعي، بل كانت تدار وفق عقلية هندسة السيطرة عبر ممارسة التفتيت الفئوي، وهو تقسيم المعتقلين إلى فئات عمرية واجتماعية ووظيفية لضرب مراكز القوة داخل البنية التقليدية وتحويل الفرد إلى وحدة بيولوجية مجردة من الانتماء. بدأ هذا التفتيت باستهداف الشيوخ والأعيان باعتبارهم القيادات القبلية والذاكرة الحية للمجتمع والضامن لاستمرار المقاومة، فكان عزلهم في خيام خاضعة للرقابة اللصيقة أو نفيهم إلى الجزر الإيطالية النائية وسيلة لقطع لسان القبيلة وتجريدها من مرجعيتها (الأشهب، 1952، ص 175) كما تعمد الحراس إهانة الرموز القبلية أمام ذويهم وإجبارهم على أعمال مهينة لإحداث صدمة نفسية لدى الأتباع، مفادها أن الحامي التقليدي فقد فاعليته، مما يمهد لفرض السلطة المطلقة لمدير المعتقل على الوجدان الجمعي (الزاوي، 1970، ص 265)

ومثلت النساء والأطفال الخاصرة الرخوة التي ضغطت من خلالها إيطاليا على المقاتلين في الجبل، فمع غياب العائل، اضطرت المرأة للقيام بمهام شاقة للبقاء، وكابدت مشاق جمع الحطب والبحث عن لقمة العيش في ظروف لا إنسانية، مما حولها من ربة خدر مصانة إلى عاملة في اقتصاد المأساة (روايات المجاهدين، 1990، ص 142) وترافقت هذه المعاناة مع سياسة تجويع ممنهج استهدفت الرضع والأطفال تحديدا، كأداة ضغط لدفع المقاتلين للاستسلام عند وصول أخبار هلاك أطفالهم، وهو ما يمثل إبادة مستقبلية تستهدف تقليص النسل الليبي (الكبتي، 2005، ص 315)

أما الشباب والرجال، فقد جرى التعامل معهم كـ محركات بشرية لتنفيذ المشاريع الاستراتيجية الاستعمارية بأقل تكلفة، حيث أدى سحب الشباب من المعتقلات لتعبيد الطرق (مثل الطريق الساحلي) إلى انهيار البنية الحمائية للأسرة، وترك النساء والشيوخ بلا قوة بدنية تذود عنهم داخل الأسلاك (عميش، 2010، ص 122) وحولت ساعات العمل الشاق من الفجر حتى

الغسق تحت سياط الحراس هؤلاء الشباب إلى أشباح فاقدة للقدرة على التفكير في التمرد، نتيجة استنزاف طاقتهم الحيوية في أعمال تخدم المستعمر الذي يعتقل ذويهم (التائب، 2001، ص 115)

عمدت إيطاليا إلى خلق طبقة اجتماعية هجينة من الباندة والمتعاونين، ومنح بعض الأفراد امتيازات غذائية مقابل الوشاية والتنكيل بإخوتهم، مما خلق حربا أهلية صامتة داخل المعتقلات. هذا التصنيف ضرب قيم التضامن الأخوي، وأصبح المعتقل يخشى من جاره الذي يرتدي الزي الإيطالي بقدر خشيته من الضابط الاستعماري، مما أدى إلى تلوث الضمير الاجتماعي وتفكيك الوحدة النفسية للمجتمع المعتقل (شكري، 1948، ص 425)

المبحث الثاني: تدمير مقومات الحياة والفقر الممنهج

تمهيد

لم تكن المعتقلات الإيطالية مجرد سجون مفتوحة، بل كانت مختبرات لممارسة الإبادة الصامتة عبر تجفيف منابع الحياة. اعتمدت الإدارة الاستعمارية إستراتيجية تقوم على تحطيم الجسد الليبي عبر الثالوث المرعب: الجوع، الفقر، والوباء.

أولا: سياسة التجويع وأثرها على البنية الجسدية للمجتمع

لم يكن الجوع في معتقلات العقيلة والمقرون وسلوق نتاجا لظروف طبيعية، بل كان تجويعا بنيويا طوعته الإدارة الفاشية كأداة سياسية وعسكرية لكسر إرادة المقاتل في الجبل عبر رؤية أسرته تتآكل حيويا خلف الأسلاك. واعتمدت السلطات الإيطالية نظاما غذائيا يقل عن حد الكفاف البيولوجي بشكل متعمد، فالحصة اليومية للمعتقل لم تتجاوز غرامات قليلة من دقيق الشعير الرديء المليء بالأتربة، وهي كمية تعطي سعرات حرارية لا تكفي لتغطية العمليات الحيوية الأساسية، مما حول الأجساد إلى هياكل عظمية قبل البدء في أعمال السخرة (عزام، 1946، ص 112)

كما استخدم الغذاء كأداة للابتزاز السياسي والمساومة، حيث خضع صرف الفتات من التمر أو الزيت لمزاجية الحراس، وحرم المعارضون من حصصهم تماما كنوع من العقاب الجماعي، بينما منح المتعاونون إضافات بسيطة لتعميق الانقسام الاجتماعي داخل المعتقل (الأشهب، 1952، ص 188)

وعندما بلغ الجوع مداه، انهارت الضوابط الاجتماعية وبرزت غريزة البقاء في أقسى صورها، حيث لجأ المعتقلون لغلي جلود القِرب القديمة وجلود الحيوانات النافقة لاستخلاص أي مادة بروتينية، واضطروا لأكل أعشاب برية مرة غير مستساغة لسد الرمق في محاولة يائسة للصمود أمام الموت (نجم، 2001، ص 195)

ووصل الإذلال الوجودي ذروته بتسابق المعتقلين خلف خيول الحرس لالتقاط حبات الشعير التي لم تهضم في فضلاتها، في ممارسة استهدفت تحويل الإنسان من كائن مكرم إلى باحث عن فضلات الحيوان (روايات المجاهدين، 1990، ص 85)

أحدث هذا التجويع الممنهج تغييرا جذريا في الخريطة الجسدية والديموغرافية، حيث فقد الرجال كتلتهم العضلية وقدرتهم على الحركة، مما جعل التفكير في التمرد أو الهروب مستحيلا فيزيائيا بسبب الانهيار البدني الشامل (عميش، 2010، ص 128) كما أدى سوء التغذية الحاد إلى انقطاع الدورة الشهرية لدى النساء وتوقف المواليد الجدد، وهي سياسة إبادة بيولوجية صامتة أوقفت النمو الديموغرافي للمجتمع لسنوات (الزاوي، 1970، ص 272)

وفتح هذا الانهيار البنيوي أبواب الأجساد للأوبئة الفتاكة، فكان الجوع هو القاتل الأول والممهد الرئيس لفتك الميكروبات (التائب، 2001، ص 92)

أدى الجوع كذلك إلى هزات في القيم البدوية القائمة على الإيثار والكرم، إذ استهدف التجويع الممنهج تشييء الإنسان وإحداث صراعات نفسية بين غريزة البقاء والالتزامات الأسرية، مما تسبب في شرخ في الأنا الأعلى للمجتمع البدوي المحافظ، تنفيذا لمخطط غراتسياني الرامي لتحطيم الكبرياء الليبي (البربار، 1995، ص 104).

ثانيا: انهيار الاقتصاد الرعوي وتحول الليبيين من ملاك إلى معدمين

كان المجتمع الليبي في برقة قبل عام 1930م مجتمعا رعويا بامتياز، حيث شكلت الماشية (إبل، أغنام، خيول) الركيزة الأساسية للبناء السوسيولوجي والاقتصادي، بوصفها المصرف المتنقل والضمان الاجتماعي المحدد للطبقة والجاه داخل القبيلة. ومع بدء التهجير نحو المعتقلات، لم يستهدف الاحتلال نقل البشر فحسب، بل تجريدهم من كل مقومات البقاء المادي عبر سياسة إبادة اقتصادية شاملة، إذ صادرت وأبادت السلطات الإيطالية مئات الآلاف من رؤوس الماشية، مما أدى إلى تجريف العمود الفقري للحياة الرعوية بشكل كامل (نجم، 2001، ص 198) ولم تهدف المصادرة للانتفاع دائما، بل مارس غراتسياني سياسة القتل الاستعراضي بذبح الحيوانات أمام أعين أصحابها لتحطيم كبرياء البدوي سيكولوجيا، وإعلان نهاية عهده كسيد مقتدر (البربار، 1995، ص 112) كما كانت هذه الإبادة وسيلة إستراتيجية لقطع طريق العودة إلى الجبل، فالبدوي بلا إبل لا يمكنه ارتياد الصحراء، وبلا غنم لا يملك مكانة يعود إليها، مما جعل المعتقل خياره القسري النهائي للاستسلام أو الموت (الزاوي، 1970، ص 275)

أدى هذا الفقدان إلى إعدام مالي وتحول جذري في بنية الفرد عبر فقدان الهوية الإنتاجية، فتحول الليبي من منتج مستكفٍ يوزع الكرم إلى لاجئ يقف في طوابير مهينة للحصول على الإعاشة، مما ضرب قيم الكرم والضيافة في مقتل لفقدان الأدوات المادية لممارستها (الأشهب، 1952، ص 192) وتسبب هذا الانهيار في تآكل الجاه القبلي، إذ تساوى الجميع في الفقر بعد أن كانت الرئاسة ترتبط بالقدرة المالية، وهدف هذا الإجراء لتحويل المجتمع إلى كتلة متجانسة من الفقراء يسهل تدجينهم وقيادهم تحت رحمة المحتل (الكبتي، 2005، ص 320)

وبعد تجريد الليبيين من ثروتهم، استغل الاستعمار قوة عملهم فيما عرف بـ عبودية القرن العشرين عبر نظام السخرة، فأجبر المعتقلون على شق الطرق الإستراتيجية وحفر الآبار للثكنات مقابل لقمة العيش المسلوبة أصلا، ليتحولوا إلى عبيد في خدمة الآلة العسكرية الإيطالية (التائب، 2001، ص 108) وأدارت الإدارة الإيطالية دورة مالية وهمية عبر استقطاع ضرائب وغرامات من الرواتب الزهيدة –إن وجدت– ليكون البناء المجاني للبنية التحتية الاستعمارية بأجساد منهكة هو النتيجة النهائية (عميش، 2010، ص 135) وكان الهدف الجوهري من السخرة هو إشغال الفرد بلقمة عيشه اليومية لدرجة تمنعه فيزيائيا من التفكير في التمرد أو المقاومة نتيجة استنزاف طاقته في كسر الأحجار لساعات طويلة (شكري، 1948، ص 430)

إن هذا الانهيار الاقتصادي خلف آثارا بعيدة المدى لم ترمم نفسها لسنوات طويلة، حيث دخل المجتمع الليبي مرحلة ما بعد المعتقلات وهو يعاني من فقر هيكلي حاد واحتياج تام، مما جعل نتائج الجريمة الاقتصادية الإيطالية تمتد لجيل كامل حتى بعد نيل الاستقلال (الكيخيا، 1994، ص 52)

ثالثا: الأوبئة الفتاكة وأثرها في تقليص أعداد الأسر الليبية

لم تكن الأوبئة في معتقلات العقيلة والمقرون وسلوق مجرد قدر محتوم، بل كانت نتاجا مباشرا لسياسة الازدحام القاتل والإهمال المتعمد، حيث هيأت الإدارة الاستعمارية كل الظروف لانتشار الميكروبات عبر الحرمان من النظافة والماء العذب وإنهاك الأجساد بالجوع الممنهج. اجتمعت جملة من الأمراض الفتاكة لتشكل مثلث الموت داخل الأسلاك الشائكة، وفي مقدمتها مرض التيفوس الذي ينتقل عبر القمل في ظل غياب النظافة والتكدس، وحصد أرواحا بمعدلات مرعبة تراوحت ما بين 30 إلى 50 شخصا يوميا في ذروة الوباء بمعتقل العقيلة (التائب، 2001، ص 94) كما انتشرت الدوسنتاريا والملاريا نتيجة شرب المياه الملوثة من السبخات، وسقط سكان الجبل الأخضر بالآلاف صرعى لهذه الأمراض نتيجة افتقارهم للمناعة ضد بيئة المناطق الساحلية الرطبة (الأشهب، 1952، ص 165) وأدى حجم الوفيات الهائل إلى انهيار الطقوس

الجنائزية، حيث كان الضحايا يلقون في خنادق جماعية دون غسل أو تكفين، مما أحدث جرحا غائرا في الذاكرة الجمعية التي تقدس طقوس الدفن (الزاوي، 1970، ص 268)

تمثلت خطورة هذه الأوبئة في إحداث انهيار ديموغرافي للأسرة وصل إلى حد الإبادة الاجتماعية عبر إبادة الأصول والفروع، إذ فتكت الأمراض بالأطفال والشيوخ، ووصلت الكارثة إلى فناء أسر ليبية بكاملها في معتقل المقرون دون بقاء فرد واحد يحمل اسم العائلة، مما أدى إلى اندثار بيوت وقبائل فرعية كاملة (نجم، 2001، ص 205) كما أفرزت الأوبئة شريحة واسعة من اليتامى، مما تسبب في تخلخل بنية القرابة وعجز القبيلة المنهكة عن استيعابهم، وهو ما خلق فجوة اجتماعية واضطرابا في التنشئة التقليدية (الكبتي، 2005، ص 325)

إن جريمة الإدارة الإيطالية تمثلت في استخدام المرض كإستراتيجية إبادة عبر منع العلاج واستخدام خيام الموت والعزل القاتل، فمن يدخل تلك الخيام لا يخرج حيا نتيجة منع الحراس وصول الغذاء الكافي للمرضى، ليكون العزل وسيلة للموت البطيء (روايات المجاهدين، 1990، ص 160) وتجلى الإهمال الطبي المتعمد في اهتمام الأطباء الإيطاليين بحماية الحرس والجنود فقط، وترك الليبيين لمواجهة الفناء البيولوجي بهدف تفريغ الأرض لتسهيل مشروع الاستيطان الإيطالي (عميش، 2010، ص 132) وقد حطمت رؤية الموت اليومي والجسد العاجز الروح المعنوية للمعتقلين، وحولت اهتمامهم من قضية الوطن إلى قضية البقاء الفردي، في خطوة خططت لها السلطات الاستعمارية لإخضاع العقل الجماعي وتدمير المقاومة من الداخل (شكري، 1948، ص 435)

المبحث الثالث: تفكك البناء القبلي والأسري

تمهيد

انتقلت السياسة الاستعمارية الإيطالية داخل المعتقلات من استهداف الفرد إلى استهداف البنية، عبر تفكيك الأنسجة الاجتماعية التي منحت المجتمع الليبي صموده التاريخي. فقد أدى نظام الاعتقال القسري إلى تآكل الأدوار التقليدية للقبيلة كحامية لأفرادها، ووضع الأسرة أمام اختبارات وجودية قاسية ناتجة عن الفقد والتهجير. يستعرض هذا المبحث كيف تحللت الروابط القرابية الكبرى، وبرزت تحولات جذرية في أدوار المرأة والفئات المستضعفة، مما أحدث شرخا عميقا في التراتبية الاجتماعية التقليدية.

أولا: تراجع دور القبيلة كحامية لأفرادها أمام السلطة الإيطالية

كانت القبيلة الليبية، وخاصة في برقة، تمثل كيانا سوسيولوجيا متكاملا يقوم بوظائف الدولة البديلة من حيث توفير الحماية الجماعية، وإدارة الموارد، وفض النزاعات عبر العرف الاجتماعي، إلا أن البيئة القسرية للمعتقلات صممت لتهشيم هذه المنظومة وتحويل الفرد من ابن قبيلة يعتز بعزوته إلى معتقل معزول يواجه مصيره منفردا. وأدرك غراتسياني أن تحطيم المقاومة يتطلب بالضرورة تحطيم رمزية شيخ القبيلة بوصفه الرأس المدبر والجامع للشتات، فتعمدت الإدارة الاستعمارية سحب كافة الصلاحيات التقليدية من الشيوخ، إذ لم يعد للشيخ أي دور في توزيع الإعاشة أو حماية أفراده من بطش الحراس، مما أدى إلى شرخ في الثقة التاريخية بين القاعدة والقمة الاجتماعية (المهدوي، 1998، ص 142) وتوازى ذلك مع ممارسة سياسة تحقير الرموز عبر تعمد توبيخ المشايخ أمام شباب قبائلهم، مما أفقد المنظومة القبلية ركيزة الوقار القائم على السن والمكانة، وأدى لفقدان القدرة على الضبط الاجتماعي العرفي داخل المعتقل (البرغوثي، 1973، ص 210)

ونفذ نظام المعتقل تفتيتا مكانيا نسف ترابط النجع بوصفه وحدة سكنية وقرابية، حيث وزعت الإدارة العسكرية الخيام بطريقة تمنع تكتل البطون الكبيرة في مكان واحد، مستهدفة منع أي تواصل تضامني أو تشاور جماعي قد يؤدي إلى تنظيم تمرد داخلي (نجم، 2001، ص 215) وفرض هذا الواقع حالة من الفردانية القسرية وانكماش اهتمام الفرد من القبيلة الكبيرة إلى

الأسرة النووية الضيقة بسبب شح الغذاء، مما أدى إلى تآكل روح التكافل (العصبية الإيجابية)، وصار كل رب أسرة يصارع وحده لإنقاذ أطفاله من الفناء، مما أضعف الروابط الأفقية بين أبناء العمومة (البربار، 1995، ص 118)

أدى انهيار سلطة الشيخ التقليدي إلى فراغ قيادي ملأته نخب هجينة من الباندة والمترجمين الذين استمدوا قوتهم من الولاء للمستعمر، فامتلك هؤلاء نفوذا مستعارا مكنهم من التحكم في توزيع الأرزاق والمساومة على مصائر الناس، مما خلق طبقة أرستقراطية زائفة داخل مجتمع المعدمين (شكري، 1948، ص 440) وأحدث هذا التحول انقلابا قيميا وتشوها في التراتبية الاجتماعية، فالشخص الذي كان يعتبر وضيعا في ميزان العرف القبلي أصبح صاحب سطوة، مما ضرب المنظومة الأخلاقية وأدى لنشوء مشاعر من الحقد والارتباك الاجتماعي استمرت آثارها النفسية لسنوات طويلة بعد التحرر (الكيخيا، 1994، ص 58)

ورغم محاولات التفكيك، إلا أن الضغط المفرط أدى لنتيجة عكسية أحيانا، حيث تحولت القبيلة من سلطة تنفيذية إلى رابطة عاطفية للمظلومية المشتركة، وتماهت الهويات القبلية الصغرى في هوية وطنية جامعة ولدت من رحم الألم، لكن بعد أن فقدت المنظومة القبلية التقليدية الكثير من تماسكها العضوي وبنيتها الهرمية المعهودة (السوري، 1974، ص 165)

ثانيا: معاناة الفئات المستضعفة داخل مجتمع المعتقل

في البنية الاجتماعية التقليدية الليبية، لم يكن مفهوم اليتيم أو الأرملة يعني الضياع، فمنظومة القرابة الواسعة كانت تضمن استيعاب هذه الفئات ضمن بيت العم أو الخال، إلا أن المعتقل بسياساته الإبادية دمر هذه الآلية التكافلية، محولا الأرامل واليتامى إلى فئات هامشية تصارع للبقاء في بيئة تفتقر لأدنى مقومات الإنسانية. وأدى ضغط الجوع والموت اليومي إلى تضخم الأنا على حساب نحن القبلية، فتراجعت العصبية التي كانت تضمن كفالة اليتيم أمام عجز الكفلاء عن إطعام أبنائهم، مما أدى لظهور الأطفال التائهين الذين هاموا بين الخيام بحثا عن فضلات الطعام (التائب، 2001، ص 102)

ونشأ هؤلاء الأطفال في فراغ قيمي لم يتعلموا فيه سوى غريزة البقاء والخوف من السوط، مما أحدث فجوة في نقل القيم البدوية والأخلاقية من جيل الآباء إلى الأبناء، وضرب الامتداد الثقافي للمجتمع الليبي (المهدوي، 1998، ص 155)

وكانت معدلات الوفيات بين اليتامى هي الأعلى نتيجة غياب المدافع عن حصتهم في الإعاشة، مما جعلهم عرضة للهلاك السريع أمام الأوبئة والنهش البيولوجي للجوع (الزاوي، 1970، ص 280)

وفقدت المرأة التي فقدت زوجها الغطاء الاجتماعي الذي كان يحمي خصوصيتها ومكانتها الرفيعة في المجتمع الرعوي، ففي ظل غياب العائل، أجبرت الأرامل على أعمال شاقة ومهينة مثل جمع الحطب وتنظيف مرافق المعسكرات مقابل حفنة دقيق، مما كسر الكبرياء النفسي للمرأة الليبية وأشعرها بالعجز الاجتماعي التام (روايات المجاهدين، 1990، ص 158)

وعاشت الأرامل، خاصة من فقدن أبناءهن، حالة من الموت النفسي في خيام متهالكة دون سند، في ظل انشغال الجميع بمصابهم الخاص، ليتحول المسكن إلى ضريح للذكريات المريرة (الكبتي، 2005، ص 332)

واتخذت سوسيولوجيا الفقد طابعا مؤلما عبر تحويل الموت إلى حدث ميكانيكي مجرد من الجلال، فالأرملة لم تكن تجد حيزا زمنيا أو نفسيا للحزن نتيجة طغيان البحث عن الغذاء لمن تبقى من أطفالها على مشاعر الفقد، مما حرمها من حق الحداد الذي يكفله العرف والدين (الأشهب، 1952، ص 198) وأدى الاستئصال القرابي والوفيات الجماعية إلى محو عائلات بأكملها، مما جعل المرأة عرضة للانتهاكات النفسية من قبل إدارة المعتقل والمتعاونين بعد فقدان الإخوة والأعمام الذين يمثلون الحماية الميدانية لها (البربار، 1995، ص 125)

ورغم هذه السوداوية، مارست هذه الفئات نوعا من المقاومة السلبية عبر الإصرار على الحياة، فالأرملة التي حافظت على ما تبقى من أطفالها وسط تيفوس العقيلة كانت تخوض معركة وطنية كبرى، وهذه الروح هي التي منعت الاندثار الكامل

للمجتمع الليبي وحافظت على بقاء الإنسان رغم نجاح الاستعمار في تفكيك هياكله التنظيمية والقبلية (السوري، 1974، ص 172)

ثالثا: تحولات دور المرأة الليبية في مواجهة المحنة

لقد أحدثت تجربة المعتقل انقلابا في تقسيم العمل الاجتماعي القائم على النوع الاجتماعي، فبينما كان الرجل هو المحارب والعائل في الظروف الطبيعية، أدى تغييبه القسري بالاستشهاد أو الأسر أو السخرة إلى تصدر المرأة للمشهد، لتصبح حائط الصد الأخير ضد الفناء البيولوجي والثقافي للمجتمع. وتحولت المرأة الليبية إلى خبيرة في اقتصاد الأزمات لإبقاء من تبقى من أفراد أسرتها على قيد الحياة، حيث مارست اقتصاد الصمود عبر تدوير الحصص الغذائية الزهيدة لتمتد لأطول فترة ممكنة، واستخلصت الغذاء من الأعشاب البرية وطهرت الحبوب الرديئة لتصبح صالحة للأطفال (المهدوي، 1998، ص 158) وفي ظل البرد القارس وغياب الأغطية، قامت النساء بحياكة الخرق وصناعة أغطية بديلة من بقايا القماش وليف النخيل، وهي الجهود اليدوية التي حمت أجساد الأطفال من الموت تجمدا في شتاء العقيلة القاسي (الأشهب، 1952، ص 205)

ولم تكن المقاومة بالبندقية فقط، بل بالكلمة التي حافظت على الهوية الوطنية داخل الأسلاك، إذ استخدمت المرأة الغناوي والشتاوي كوسيلة لتشفير أخبار انتصارات المجاهدين في الجبل أو رثاء الشهداء، مما حافظ على الروح المعنوية من الانهيار التام أمام دعاية المحتل (الكبتي، 2005، ص 330) كما لعبت دورا حاسما في تعزيز قيم الأنفة والرقابة الأخلاقية، فكانت بقصائدها تحقر من شأن المتعاونين (الباندة) وتعزز قيمة الصمود لدى الرجال، ليكون صوتها الرابط الروحي الذي منع المجتمع من فقدان الأمل أو التماهي مع إرادة الجلاد (البربار، 1995، ص 132)

وفي بيئة استهدفت كسر الكبرياء، برز صمود المرأة كفعل نضالي لحماية العرض وجوهر الشخصية الليبية، إذ ابتكرت النساء رغم التكدس نظاما دقيقا لـ الستر الجماعي، مما أفشل محاولات الإدارة الإيطالية لتجريد المجتمع من حيائه الذي يمثل نواة كرامته (الزاوي، 1970، ص 285) وواجهت المرأة محاولات الابتزاز الاستعماري بصلابة، حيث عومل العرض كرمز للأرض والوطن، وكان صمودها أمام ضباط المعتقل هو المعركة الأخلاقية التي لم يستطع غراتسياني كسبها رغم تفوقه العسكري (التائب، 2001، ص 112)

ختاما، يعزى بقاء المجتمع الليبي ككيان متماسك بعد الخروج من المعتقلات في المقام الأول للأم الليبية التي كانت الجسر الثقافي لنقل رواية النضال للأطفال الذين ولدوا داخل الأسلاك، وبفضلها خرج الليبيون بهوية وطنية واضحة رغم محاولات الطمس الإبادي (نجم، 2001، ص 210) فلولا صمودها في التدبير وحزمها في حفظ القيم، لخرج المجتمع من تجربة المعتقلات تائها بلا ذاكرة أو تاريخ.

المبحث الرابع: التداعيات الاجتماعية طويلة الأمد

تمهيد

لم تكن لحظة فتح أبواب المعتقلات في عام 1934م إيذانا بانتهاء المأساة، بل كانت بداية لمواجهة استحقاقات اجتماعية ونفسية واقتصادية بالغة التعقيد. فالمجتمع الليبي الذي خرج من خلف الأسلاك لم يعد هو ذاته الذي دفع إليها، إذ تشكلت خارطة جديدة من العلاقات والندوب التي أعادت تعريف مفهوم الوطن والهوية. يستعرض هذا المبحث الآثار العميقة التي تركتها تجربة الإبادة في الوجدان الليبي، وكيف تحولت الذاكرة الجريحة إلى محرك أساسي لصياغة المشروع الوطني الليبي الحديث.

أولا: مشكلة العودة وصراع استرداد الأراضي والممتلكات

عندما بدأت السلطات الإيطالية إغلاق المعتقلات تدريجيا في عام 1934م، واجه الناجون حقيقة مروعة، فالوطن الذي غادروه تحت وطأة السلاح لم يعد متاحا لهم، ومثلت رحلة العودة حالة من الغربة في الوطن أمام واقع ديموغرافي وقانوني صمم لإقصائهم للأبد. فقد صدم الناجون عند عودتهم بوجود قرى زراعية حديثة (مستوطنات الإنتي) بنيت بأحدث الأساليب الأوروبية على أفضل الأراضي الخصبة في المرج والجبل الأخضر، والتي كانت في الأصل أرض ميعاد للمهاجرين الإيطاليين (الأشهب، 1952، ص 212) ووجد العائدون أن النجوع قد سويت بالأرض، والآبار التي كانت ملكا لآبائهم قد حصنت للمستوطنين الجدد، مما خلق نزاعا وجوديا، فالأرض التي سقيت بدماء الأجداد أصبحت قانونيا –وفق التشريعات الاستعمارية– ملكا للمهاجر الإيطالي، مما جعل الليبي غريبا في عقر داره (عميش، 2010، ص 142)

أنتج فقدان الماشية في المعتقلات فقرا هيكليا وتحولا طبقيا حادا، إذ اضطر البدوي الذي كان سيدا يملك آلاف الشياه للعمل أجيرا زراعيا لدى المستوطن الإيطالي في أرضه الأصلية، وهو تحول حطم البنية النفسية للرجل الليبي وأحدث شرخا في منظومة القيم المرتبطة بالأنفة والسيادة (البربار، 1995، ص 138) وأصبح العائدون يعتمدون في عيشهم على أجور زهيدة تجود بها المزارع الإيطالية، تحقيقا لهدف غراتسياني المتمثل في تحويل الليبيين إلى عمالة رخيصة ومسحوقة لخدمة المشاريع الإنتاجية للإمبراطورية (التائب، 2001، ص 120)

تسببت سياسة إعادة توزيع الأراضي في خلق فتن اجتماعية ونزاعات قانونية بين الليبيين أنفسهم، فعندما صادرت إيطاليا الأراضي الخصبة، دفعت بالقبائل العائدة إلى جيوب ديموغرافية ضيقة وهامشية، مما أدى لنشوء نزاعات قبلية حول حدود المراعي والآبار المتبقية وأضعف الجبهة الداخلية (نجم، 2001، ص 222) ولم تنتهِ هذه المشكلة برحيل إيطاليا، بل ظلت ملفات استرداد الأراضي معقدة ومثقلة بالوثائق الاستعمارية التي طمست الملكيات القديمة، وظل بعضها جرحا في الذاكرة الاجتماعية أثر على تماسك النسيج الاجتماعي في الأرياف حتى بعد الاستقلال (الكبتي، 2005، ص 348)

أدت سنوات المعتقل والمنع من الرعي إلى تدمير البيئة الرعوية وتغيير جذري في نمط الحياة، حيث بدأ الكثير من العائدين الذين فقدوا كل شيء بالهجرة نحو مراكز المدن مثل بنغازي ودرنة للبحث عن عمل يدوي، وكانت هذه الهجرة القسرية النواة الأولى لظهور أحياء الصفيح حول المدن الكبرى نتيجة الفقر الهيكلي (الكيخيا، 1994، ص 64) ومثلت تجربة المعتقل وما تبعها من سلب للأراضي المسمار الأخير في نعش الرعوية الخالصة، حيث بدأ المجتمع يتحول قسريا نحو الاستقرار الهش أو العمالة الحضرية، وهو تحول اجتماعي فرضته الأسلاك الشائكة أولا، ثم سياسة المصادرة ثانيا (الزاوي، 1970، ص 290)

ثانيا: الأثر النفسي والاجتماعي الممتد في ذاكرة الناجين وأبنائهم

إن الصدمة التي عاشها المجتمع الليبي كانت صدمة مركبة، فهي صدمة اقتلاع من الأرض، وصدمة جوع، وصدمة فقدان الحماية القبلية، وهي عوامل أنتجت بنية نفسية اجتماعية خاصة صبغت الشخصية الليبية في برقة لعقود طويلة. واجه الناجون بعد خروجهم حالة نفسية معقدة تشبه اضطراب ما بعد الصدمة على مستوى أمة كاملة، حيث سادت حالة من الذهول الجماعي بين العائدين وعجز الكثيرون عن الاندماج مجددا في نسيج المجتمع، وفضلوا الخرس الاجتماعي لعدم قدرتهم على وصف بشاعة ما جرى ولعجز اللغة عن احتواء حجم الألم (شرف، 1971، ص 158) كما حطم المعتقل صورة البدوي الفارس في ذهنية الليبي، فمشاهد الإهانة اليومية والجوع القاتل خلقت شعورا بالدونية النفسية وصدمة في الأنا الجمعية، مما تطلب سنوات من الترميم المعنوي لاستعادة الثقة في الكيان الاجتماعي بعد سنوات الذل خلف الأسلاك (القويري، 1968، ص 92)

أنتجت المعتقلات جِيلا كاملا نشأ في بيئة غير سوية، مما أثر على التنشئة الاجتماعية لليبيين في العقود التالية، حيث نشأ آلاف الأطفال وهم يفتقدون للنموذج الأبوي والتربية التقليدية، وحرموا من المدرسة القبلية لينشؤوا في ظل سلطة السوط، مما

جعل علاقتهم بمفهوم السلطة قائمة على الخوف والارتياب والارتباط الذهني بالقمع (نجم، 2001، ص 218) وانتقل هذا القلق الوجودي من الآباء إلى الأبناء، فأصبح الحذر المفرط من الغريب والارتباط الوجودي بالأرض صفات متجذرة في الشخصية الليبية العائدة، كآلية دفاعية لا واعية لضمان عدم تكرار مأساة الاقتلاع (بعيو، 1954، ص 175)

وأمام عجز الخطاب الرسمي، برز الأدب الشعبي كآلية دفاعية للتعبير عن الألم وتفريغه، فقصيدة الشاعر رجب بوحويش ما بي مرض غير دار العقيلة لم تكن مجرد نص شعري، بل عملية تطهير نفسي جماعي لخصت آلام الأمة، وصارت أيقونة صوتية تعويذة ضد النسيان وضد محاولات المحتل طمس الحقيقة (المهدوي، 1959، ص 84) وتحول هذا الحزن إلى طاقة تغذي الهوية الوطنية، فكانت الذاكرة الجمعية للملحمة هي المحرك الأساسي للمطالبة بالاستقلال، حيث أصبح الفرد الليبي يرى في الحرية السياسية الضمانة الوحيدة لعدم العودة إلى السلك مرة أخرى (البربار، 1995، ص 142)

وظل الجبل الأخضر في مخيلة الناجين بمثابة الفردوس المفقود، مما أنتج تيارا يقدس الأرض ويرفض التنازل عنها، فالتمسك الشديد بالملكية العقارية والقبلية في ليبيا ما بعد الاستقلال تعود جذوره النفسية إلى صدمة عام 1930م حين انتزعت الأرض من أصحابها بلمحة بصر، مما جعل امتلاك الأرض بالنسبة لليبي هو جوهر الأمان الوجودي والكرامة الإنسانية (الكيخيا، 1994، ص 68)

ثالثا: دور المعتقل في صهر المكونات القبلية وتشكيل هوية وطنية جامعة

تكمن المفارقة التاريخية الكبرى في أن الجدران والأسلاك الشائكة التي وضعتها إيطاليا لعزل الليبيين وتفتيتهم، كانت هي المحفز الأول لالتحامهم بعيدا عن الجغرافيا القبلية الضيقة، حيث أنتجت تجربة المعتقلات وعيا وطنيا ناشئا من رحم المظلومية المشتركة. لقد كان المعتقل المساحة التي التقت فيها قبائل برقة بمختلف بطونها (العواقير، والعبيدات، والمغاربة، والمنفة، والدرسة) تحت وطأة جلاد واحد، مما أذاب الجليد بين المكونات التي كانت تتنافس تاريخيا، وصهرها في بوتقة المصير الواحد (عميش، 2010، ص 162) ووفر هذا الفضاء فرصة لتعارف أبناء القبائل المتباعدة جغرافيا وتبادل قصص الصمود، مما حول الوعي من أنا القبيلة إلى نحن الشعب، فالرصاصة الإيطالية لم تكن تميز بين الألقاب، مما جعل الليبيين يشعرون بأنهم كيان واحد يواجه فناء مشتركا (الزاوي، 1970، ص 298)

وأحدثت هذه المحنة طفرة سوسيولوجية في مفهوم الانتماء عبر إضعاف العصبية الضيقة لصالح عصبية وطنية جامعة، حيث أصبح الرفيق في السلك يمثل رابطة قد تفوق رابطة الدم في عمقها النفسي، ممهدة الطريق لظهور مفهوم المواطنة قبل قيام الدولة (البرغوثي، 1973، ص 225) وكان الجيل الذي قاد مفاوضات الاستقلال لاحقا مشبعا بروح التضامن العضوي الذي ولد في العقيلة والمقرون، إدراكا من القيادات الوطنية بأن الوحدة هي الضمانة الوحيدة لمنع تكرار المأساة، وأن الانقسام القبلي كان الثغرة التي نفذ منها الاستعمار (بعيو، 1954، ص 188)

ولعبت الحركة السنوسية دور الرابط الروحي الذي منح المعتقل أبعادا سياسية ووطنية شاملة، فتضحيات المشايخ والطلبة السنوسيين داخل المعتقلات رسخت في أذهان الليبيين أن السنوسية ليست مجرد طريقة صوفية، بل هي الوطن المعنوي والرمز السياسي لمقاومة الطمس الإيطالي (الأشهب، 1952، ص 220) وبفضل هذا الدور القيادي داخل الأسلاك، أصبح الولاء لـ إدريس السنوسي هو الرابط الذي يجمع القبائل بمختلف مناطقها، مما مهد الطريق لقيام الدولة الليبية الحديثة كدولة متحدة تتجاوز النزعات المحلية الضيقة (المهدوي، 1998، ص 175)

أصبح الشعور بنحن الذين عانينا من السلك هو العقد الاجتماعي غير المكتوب، فالهوية الوطنية الليبية لم تبن على الورق، بل صِيغت في معتقلات الإبادة، وصارت الذاكرة الجماعية لسنوات السلك هي المرجعية التي تستدعى لتوحيد الصف في الأزمات (البربار، 1995، ص 148) وهذه الهوية التي ولدت من الألم المشترك هي التي جعلت الليبيين يشعرون بأنهم

جسد واحد تألمت أعضاؤه معا خلف الأسلاك الشائكة، مما جعل الدفاع عن الوطن دفاعا عن الكرامة الشخصية والجمعية معا (نجم، 2001، ص 228)

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج الجوهرية التي أجابت على إشكالية البحث وأهدافه، حيث ثبت أن المعتقلات الإيطالية في ليبيا لم تكن مجرد عزل عسكري، بل كانت مختبرات لإبادة اجتماعية وبيولوجية ممنهجة. لقد نجحت سياسة التجويع والأوبئة في إحداث شرخ ديموقراطي هائل أدى إلى اندثار أسر بالكامل ومحو هويتها الإنتاجية، وتحول المجتمع الليبي من اقتصاد رعوي مستقل إلى حالة من الفقر الهيكلي والتبعية المهينة. كما كشفت النتائج عن تفكك عميق في البناء القبلي التقليدي وسقوط الهيبة الرمزية للقيادات التاريخية، لكنها في المقابل أثبتت أن وحدة الألم خلف الأسلاك كانت البوتقة التي انصهرت فيها الولاءات الضيقة لتلد هوية وطنية جامعة، برزت فيها المرأة كحارس أخير للقيم والذاكرة.

وبناء على هذه النتائج، تضع الدراسة عدة توصيات ضرورية، أهمها ضرورة الانتقال بالملف التاريخي للمعتقلات من حيز التذكر العاطفي إلى حيز التوثيق الأكاديمي والحقوقي الدولي، واعتبار هذه الفترة جريمة إبادة جماعية مكتملة الأركان لا تسقط بالتقادم. كما نوصي المؤسسات التعليمية والثقافية بضرورة إدماج تاريخ الضحايا والسوسيولوجيا الشعبية ضمن المناهج الدراسية، لتعزيز الوعي التاريخي لدى الأجيال القادمة بما يتجاوز مجرد سرد المعارك العسكرية.

أما فيما يخص المقترحات المستقبلية، فإن الباب لا يزال مفتوحا أمام الباحثين لإجراء دراسات بينية تربط بين علم النفس الاجتماعي وعلم التاريخ، لتقصي أثر صدمة المعتقل على السلوك السياسي والاجتماعي لليبيين في العصر الحديث. كما نقترح مشروعا وطنيا لأرشفة رقمية شاملة لكل مكان سقط فيه معتقل، وتحويل تلك المواقع إلى مراكز ذاكرة عالمية. وأخيرا، ندعو إلى التوسع في دراسة الجغرافيا القانونية للأراضي المصادرة، وتأثير تلك الحقبة على نزاعات الملكية العقارية المعاصرة، لضمان فهم شامل للجذور التاريخية للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية الراهنة.

المصادر والمراجع

1. الأشهب، محمد الطيب .(1952) برقة العربية بين الأمس واليوم .القاهرة، مصر: مطبعة الهواري.
2. البربار، عقيل محمد .(1995) المقاومة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي: الجزء الأول .طرابلس، ليبيا: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.
3. البرغوثي، عبد اللطيف محمود .(1973) التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي .طرابلس، ليبيا: منشورات الجامعة الليبية.
4. بعيو، مصطفى .(1954) المختار في مراجع تاريخ ليبيا .الإسكندرية، مصر: مطبعة الأمانة.
5. التائب، محمود علي .(2001) ليبيا بين الماضي والحاضر: صفحات من النضال الوطني)المجلد الأول والثاني). طرابلس، ليبيا: دار الكتب الوطنية.
6. الزاوي، الطاهر أحمد .(1970) جهاد الأبطال في ليبيا .بيروت، لبنان: دار الفتح للطباعة والنشر.
7. السوري، صلاح الدين .(1974) ليبيا أثناء العهد الإيطالي .بنغازي، ليبيا: دار الكتب الوطنية.
8. شرف، عبد العزيز طريح .(1971) جغرافيا ليبيا .الإسكندرية، مصر: دار الجامعات المصرية.
9. شكري، محمد فؤاد .(1948) السنوسية دين ودولة .القاهرة، مصر: دار الفكر العربي.
10. عزام، عبد الرحمن .(1946) ليبيا: مأساة إنسانية .القاهرة، مصر: مطبعة الاعتماد.
11. عميش، إبراهيم .(2010) تاريخ ليبيا السياسي الحديث .بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قاريونس.
12. القويري، عبد الله .(1968) نظرات في الأدب والحياة .طرابلس، ليبيا: دار مكتبة الفكر.
13. الكبتي، سالم .(2005) ليبيا مسيرة الاستقلال: دراسة وثائقية في تاريخ ليبيا المعاصر)المجلد الأول: السنوسية وتأسيس الدولة). بنغازي، ليبيا: دار الكتب الوطنية.
14. الكيخيا، منصور محمد .(1994) ليبيا بين حكم الفرد ومؤسسات الدولة .لندن، المملكة المتحدة: دار ليلى للنشر.
15. مركز جهاد الليبيين .(1990) سلسلة روايات المجاهدين: شهادات شفوية عن حركة الجهاد والمعتقلات طرابلس، ليبيا: منشورات مركز جهاد الليبيين.
16. المهدوي، إبراهيم .(1998) تاريخ ليبيا الحديث .بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قاريونس.
17. المهدوي، أحمد رفيق .(1959) ديوان رفيق .بنغازي، ليبيا: مطبعة برقة.
18. نجم، فرج عبد العزيز .(2001) القبائل الليبية: أنسابها وفروعها .بنغازي، ليبيا: دار الكتب الوطنية.